الفصل الرابع

المحررون والمصححون

بدء تعيين المصححين . كان المصححون يختارون عناوين الكتب المترجمة ويكتبون مقدماتها وخاتماتها ، إهمال أسماء المؤلفين . تفريق جورجي زيدان بين المحررين والمصححين . المصححون في مدرسة الطب : الشيخ محمد المرادي . الشيخ محمد عرام . الشيخان أحمد حسن الرشيدي وحسين غانم الرشيدي ، الشيخ سالم عوض الفيتاني . الشيخ محمد عمر التونسي ؛ مصحح مدرسة الطب البيطري الشيخ مصطفى كساب . مصحح مدرسة الزراعة الشيخ نصر أبو الوفا الهوريني . مصحح مدرسة الهندسة الشيخ ابراهيم الدسوقي . مصححو مدرسة الالسن . أثر هؤلاء المشايخ في حركة الترجمة . ما أفاده بعضهم من هذه الحركة

كانت الطائفة الأولى التي تولت الترجمة في عصر محمد علي هي طائفة السوريين ولم يكن أفراد هذه الطائفة على علم واسع متين باللغات التي يترجمون عنها أو باللغة العربية ، وذلك لأن معرفتهم بهذه اللغة كانت معرفة ممارسة لا معرفة دراسة . ولأنهم كانوا جميعا مسيحيين . فلم يقوّم القرآن لسانهم أو أسلوبهم.

ولما كانت حكومة محمد علي ترى أن هذه الكتب المترجمة هي صفحة جديدة في نهضة علمية جديدة ، سينسبها التاريخ إلى صاحب هذه النهضة . فقد فكرت في الطريقة التي تقوم بها ما اعوج من أسلوب هؤلاء السوريين، وهداها تفكيرها إلى اختيار جماعة من شيوخ الأزهر ليتولوا مراجعة هذه الكتب بعد ترجمتها ويصححوا ما بها من أخطاء ، ويقوموا ما بأسلوبها من اعوجاج .

وقد كان من تقليد ذلك العصر أن يترك للشيخ المحرر أو المصحح كتابة مقدمة الكتاب وخاتمته ، واختيار عنوان عربي جديد له ، واعتاد هؤلاء الشيوخ — متأثرين بالكتب القديمة التي قرأوها — أن يلتزموا السجع في اختيار العنوان وعند كتابة المقدمة والخاتمة . وقد كان لهذه الطريقة في اختيار العنوان عيبها ، وفي كتابة المقدمة والخاتمة فائدتها ، وذلك أنهم بعدوا بالعنوان المسجوع عن العنوان الأصلي للكتاب بعداً كبيراً، فلما حاولت إرجاع هذه الكتب إلى أصولها لمعرفة أسمائها الأجنبية عزّ على ذلك ، بل واستحال ، فكيف يمكن تحقيق الأسماء الأصلية لكتب هذه عناوينها : « نزهة الأنام في التشريح العام » أو « منتهى الأغراض في علم الأمراض » أو « رضاب الغانيات في حساب المثلثات » أو « منتهى البراح في علم الجراح » الخ .. الخ .

أما المقدمات والخاتمات فقد أفدت منها فوائد جمة . فقد اعتاد كل شيخ أن يذكر في مقدمة كل كتاب

يراجعه كلمة عن فضل « ولى النعم » فى إحياء النهضة العلمية الحديثة . ثم يشير إلى جهود ناظر المدرسة التى ترجم فيها هذا الكتاب . مع مبالغة ملحوظة فى مدحه والثناء عليه وعلى جهوده وعلمه، فكاوت بك فى نظر الشيخ التونسى هو « ابقراط زمانه . وأفلاطون أقرانه . أمهر من قال أنا طبيب . من يكاد الداء إذا رآه بدون معالجة يطيب » (١) والشيخ مصطفى كساب يصف المسيو « آمون » ناظر الطب البيطرى بأنه « الطبيب النجيب ، اللوذعى اللبيب . ذو اللطائف والفنون . الحاذق الماهر آمون(٢) ، . . وهكذا .

فاذا انتهى الشيخ من هذا التقريظ ذكر اسم المترجم مثنيا على نبوغه ومقدرته وقد يذكر السبب الدافع لترجمة الكتاب . أو الشخص الموحى بترجمته . وقد يشير إلى طريقة الترجمة مما سنفصل الكلام عنه عند تقديرنا العام للترجمة فى هذا العصر .

وفى الخاتمة كان يشير الشيخ إلى أن الكتاب قد « تم . . على يد مصحح مسائله ومنقح دلائله ، أو أنه « كمل حسب الطاقة تصحيحاً . وتم تهذيبا وتنقيحا ، أوأنه « هذب عباراته ومبانيه . وحرر بعد السؤال معانيه . وبذل فيه غاية المجهود. ونظمه نظم اللآلى فى العقود . . ، أو أنه روجع « على يد مصحح كلمه عند الترجمة . محرر جمله لدى القراءة والمقابلة . مفرغه فى قالب التصانيف الأولية، صائغه على تمثال التآليف العربية . مؤاخيه حال القراءة والجمع . موافيه عند التمثيل والطبع . . مغفور المساوى محمد الهراوى، الخ الخ

فإذا انتهى الشيخ من مدح نفسه والثناء على مجهوده ، ذكر اسم الكتاب ونص على أنه هو الذى اختاره ثم أشار إلى تاريخ الانتهاء من الترجمة ، وتاريخ الانتهاء من طبعه ، وكان بعض المشايخ يؤرخ لكتابه بأبيات من الشعر — كتقليد العصر — ثم يذكر فى هذه الأبيات — أحيانا — عدد النسخ التى طبعت من الكتاب وقد كان المعتاد أن يطبع من كل كتاب ألف نسخة ، وفى النهاية كان يشير الشيخ إلى المطبعة التى طبع بها الكتاب

من هذا كله يتضح أن هذه المقدمات والخاتمات هى فى الواقع وثائق هامة جداً لتاريخ الحركة الفكرية فى ذلك العصر ، فمنها استطعت أن أعرف الشىء الكثير عن الكتب ومترجميها ومصححيها ، وطريقة الترجمة ، والمراجعة والتصحيح وعدد الطبعات ، وسنة الطبع وأغراض الترجمة ، وموجهيها .

والشىء الوحيد الذى كان يغفله الشيوخ — رغم أهميته — هو أسماء المؤلفين فقد كانوا يشيرون إلى هذه الأسماء ، ولم يحدث هذا إلا فى الكتب التى وضعها مدرسو المدارس ، أو فى الكتب التى ترجمت فى مدرسة الألسن ، وألفها رجال عظام « كفولتير ، أو « روبرتسون ، الخ . ، وكانت هذه الأسماء تكتب بحروف عربية ، ولم يحدث أبدا أن كتبت بحروف لاتينية ، مع وجود هذه الحروف فى مطبعة بولاق منذ إنشائها ، بدليل استعمالها فى طبع القاموس الإيطالى العربى .

---

(١) كنوز الصحة . ص ٣

(٣) غاية المرام فى أدوية الأسقام . ص ٢ .

وقد انتفى هذا التقليد فى الكتب التى ترجمها خريجو الألسن ، فأصبح المترجمون يكتبون المقدمات والخاتمات بأنفسهم غير أن الشيء الوحيد الذى كان يعانى منه الشيوخ المحررون كثيرا ، ثم عانى منه خريجوا الألسن أيضا وهم يتبعون طريقتهم ، هو السجعات التى تتفق وأسماءهم ، فكانوا يتحايلون على هذه الأسماء تقديما وتأخيرا ، وتبديلا وتغييرا حتى تتفق أخيرا مع مايكمل السجعة ، وفيما يلى أمثلة طريفة لما كان يبذله هؤلاء الشيوخ من جهد لنظم أسمائهم فى سجعات مختلفة .

فالشيخ ابراهيم الدسوقى يعانى من لقبه ، وأخيرا يوفق إلى أنه « المتوسل إلى الله بالقطب الحقيق ، ابراهيم عبد الغفار الدسوقى » ثم لاتعجبه هذه السجعة . فيبدل من وضع أجزاء اسمه . وينتهى إلى أنه « راجى غفر الأوزار — أو أسير الأوزار — إبراهيم الدسوقى عبد الغفار » ، أما الشيخ التونسى فهو دائما « المتوكل على عفو المنان ، محمد التونسى بن سليمان » . فاذا سئم فهو « مصحح كتب الطب الآن محمد التونسى ابن سليمان » . أما الشيخ محمد الهراوى فكانت مهمته سهلة لأنه دائما « مغفور المساوى ، محمد الهراوى » وكذلك الشيخ مصطفى كساب فهو دائما « المفتقر إلى رحمة ربه الوهاب — أو راجى حسن المآب — الشيد مصطفى حسن كساب » .

وقد حذا حذو المشايخ فيما بعد خريجو الألسن فالتزموا — مثلهم — السجع فى مقدمات كتبهم . ولهذا عانوا مثلما عانى الشيوخ ، ورأينا فى كتبهم أمثال هذه السجعات : « راجى رحمة ربه على الدوام ، الفقير إلى الله تعالى سعد نعام » و « راجى رحمة الملك الودود ، عبده خليفه محمود » و « وراجى رحمة ربه المتعال ، السيد عمارة بن عبد العال » وأخيرا أستاذهم « المؤيد برعاية الملك المبدى ، السيد رفاعة بدوى » أو « الراجى فضله الواسع ، رفاعة بدوى رافع » ، الخ

وقد حاول جورجى زيدان أن يصنف هؤلاء الشيوخ إلى محررين ومصححين . وذكر أن « التحرير فى الأصل هو الإصلاح والتقويم . فيقولون حرر الكتاب أى قومه وحسنه وخلصه بإقامة حروفه . وإصلاح سقطه . والمحرر الذى يقوم بذلك » أما المصحح فى رأيه فهو الذى « يتولى تصحيح الكتاب فى أثناء الطبع » وذلك « لأن المحررين يشترط فيهم معرفة العلم الذى يعهد اليهم بتحريره . وفهم مصطلحاته العلمية . وغير ذلك فضلا عن معرفة اللغة ، أما المصححون فيكفى فيهم معرفة قواعد اللغة وشواردها اضبط العبارات حسب القواعد » .[1] والواقع أن الشيوخ الذين قاموا بمراجعة الكتب المترجمة فى ذلك العصر كانوا يقومون بالعملين معا . بل كان لهم جهد مشكور — وخاصة الشيخ التونسى — فى أحياء المصطلحات العلمية العربية القديمة ومحاولة التوفيق بينها وبين المصطلحات الأوروبية الحديثة بعد مراجعة كتب العرب

---

(١) جورجى زيدان . تاريخ آداب اللغة العربية . ج ٤ . ص ١٧٥ .

فى الطب والهندسة والرياضيات ؛ ولفظ المحرر لفظ حديث شاع استعماله بعد نشأة الصحافة وانتشارها ، أما وثائق العصر فكانت تسميهم دائمـــاً مصححين ، فإذا فرقت بينهم سمت هـذا مصححاً أول أو باشمصحح ، وسمت الآخرين مصححين ، والشيخ الوحيد الذى أطلقت عليه كتب العصر لفظ «محرر» هو الشيخ التونسى .

وكان المصحح يمنح فى العادة — حسب تقاليد العصر — رتبـــة اليوزباشى ، وبذلك يكون راتبه ٤٥٠ قرشاً فى الشهر . أو رتبة الملازم فيكون راتبه ٣٠٠ قرش[١] .

كانت أول مدرسة خصوصية شهدت نظام المحررين والمصححين هى مدرسة الطب غير أن هذا النظام أصبح تقليداً فيما بعد ، فألحق بكل مدرسة خصوصية مصححون لمراجعة الكتب التى تترجم بها ، وحتى مدرسة الألسن فإنها خضعت لهذا النظام ، وذلك لأن الكثيرين من خريجيها لم يكونوا من أبناء الأزهر ، بل جمعوا كما ذكرنا من مكاتب الأقاليم ، فكانوا — رغم دراستهم اللغة العربيـة فى مدرسة الألسن على فطاحلها فى ذلك العصر — فى حاجة إلى من يراجع كتبهم ، ويصحح لغتها ويقوم أسلوبها ، وسنحاول فيما يلى أن نتحدث عن هؤلاء المصححين وجهودهم .

فى مدرسة الطب :

١ — الشيخ محمد عمران الهوارى : هو أقدم وأول من عين من المصححين بمدرسة الطب ، ولا نستطيع أن نحدد بالضبط فى أى سنة عين ، ولكنه عين قطعاً قبل سنة ١٢٤٨ (١٨٣٢) وهى السنة التى طبع فيها أول كتاب طبى ترجم فى مدرسة أبى زعبل ، وهو كتاب القول الصريح فى علم التشريح[٢] وترجمه يوحنا عنحورى ، وقام على تصحيحه الشيخ الهراوى بالاشتراك مع الشيخ أحمد الرشيدى .

وقد قام الشيخ الهراوى بتصحيح كل الكتب الطبيـة التى ترجمها المترجمون السوريون : عنحورى وفيدال ، وسكاكينى[٣] ، فلما عاد أعضاء البعثة الطبية الأولى بدأ يراجع ترجماتهم أيضاً ، فكان أول كتاب راجعه من هذه الكتب هو كتاب « الأربطة الجراحية » الذى ترجمه النبراوى وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٤ .

وكان كلوت بك قد أنشأ — فى السنوات الأولى من تأسيس مدرسة الطب — مدرسة تجهيزية لإعداد الطلاب لمدرسة الطب ، وأسماها « مدرسة المارستان » ، وقد ظلت هـذه المدرسة قائمة حتى أواخر سنة ١٢٥١ أو أوائل سنة ١٢٥٢ (١٨٣٦) حيث تعرضت لعوامل الضعف والانحلال ، وأهم هذه

(١) تاريخ التعليم فى عصر محمد على . ص ٦٨٦ .

(٢) قال مستر « دن » فى مقاله عن الطباعة والترجمة . ص ٣٤٢ هامش ١ أنه يرجح أن يكون هذا الكتاب هو Éléments de Chirurgie تأليف Begin ، ولكننى رجعت إلى الترجمة العربية فوجدت الشيخ الهراوى يذكر صراحة أن الكتاب من تأليف « المعلم بايل » Bayle .

(٣) راجع بيان هذه الكتب فى الفصل الخاص بالمترجمين السوريين .

العوامل عدم توفر المدرسين من الأطباء لتدريس العلوم التمهيدية للطب لتلاميذ تلك المدرسة حتى م . « بها من المدرسين إلا ناظرها الشيخ »[١] — أى الشيخ محمد عمران الهراوى .

وعند وضع لائحة سنة ١٨٣٦ لتنظيم التعليم رؤى الاستغناء عن هذه المدرسة ، وكتب « شورى المدارس » إلى كلوت بك يسأله رأيه ، فاقترح إلغاء المدرسة ، ثم رأى الشورى أن يستطلع رأى ناظر المدرسة الشيخ الهراوى ، فكتب الشيخ إليهم أنه « لا يمكن الاستفادة من هذه المدرسة وهى على حالتها الحاضرة ، ولكن لو عين لها مدرسون وما تحتاج إليه ، ونظمت أسوة بالمدارس الأخرى تصبح مفيدة ، أما إذا تركت على ماهى عليه الآن من الفوضى ، فلا يمكن أن يتعلم طلبتها شيئاً . ونكون قد صرفنا مبالغ طائلة فى غير محلها[٢] » ، ولكن كلوت بك أصر — رغم هذا البيان — على إلغاء المدرسة ، لأنه كان يعلم كما يقول الدكتور عزت عبد الكريم أن « إيجاد المدرسين من الصعوبة بمكان ، وأن تنظيمها يحتاج إلى مصروفات باهظة[٣] » .

ويبدو أن هذا الموضوع كان مثار خلاف شديد بين الرجلين — كلوت والهراوى — وأن الشيخ اعتد برأيه وأصر عليه ، ووصل خبر هذا النزاع إلى محمد على باشا وكانت للشيخ لديه سابقة أخلاقية ، فأصدر أمره فى الحال إلى وكيل الجهادية بأنه « علم من اطلاعه على المضبطة المؤرخة فى غرة الجارى (جمادى الآخرة ١٢٥١) حصول المعارضة من الشيخ الهراوى فى أمور لا تعنيه ، وبالنسبة لعلمه بآدابه لم يقابل بشىء من شورى الأطباء ، ويشير بأن المذكور ليس ممن يجب احترامهم ، بل من الأشرار المحتاجين للإيقاظ وحتى أن تزويره معلوم لديه من قبل ، وأن التزامهم السكون ، وعدم إدراكهم كيفية المذكور أوجب استغرابه فيلزم بوصول أمره هذا استحضار المذكور ، والتنبيه عليه مؤكداً بعدم تداخله فى شىء خارج عن وظيفته ، وبأنه ينفى ويطرد لو حصل إقدامه ثانياً على ما يوجب النشكى منه[٤] » .

وفى الحادى عشر من نفس الشهر كتب محمد على أيضاً إلى مأمور ديوانه حبيب أفندى يستدعى الشيخ وينبه عليه « بتجنب التدخل فى أمور ولوازم مدرسة المارستان وشؤون تلاميذها ، بل يحصر اهتمامه فى تصحيح ترجمة الكتب المحولة إلى عهدته فقط ، وإذا لم ينتصح يزجه فى غرفة خالية ويشغل خاطره بالعصا[٥] » ، وقد استقر الرأى نهائياً على إلغاء المدرسة ، واكتفى الشيخ الهراوى بأن « يحصر اهتمامه فى تصحيح

---

(١) عابدين دفتر ٢٠٠٢ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٥ المحرم ١٢٥٢ (عن عزت عبد الكريم الرجع السابق ص ٢٨٩ . حيث ذكر فى ص ٢٥٨ هامش ٣ خطأ أن الشيخ الهراوى أرسل فى بعثة طبية إلى فرنسا .

(٢) و (٣) عابدين دفتر ٢٠٠١ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ٢١ ذى الحجة سنة ١٢٥١ . وتاريخ التعليم فى عصر محمد على ص ٢٩٠ .

(٤) تقويم النيل . ج ٢ . ص ٤٥١ بتاريخ ٧ جمادى الآخرى ١٢٥١ .

(٥) عابدين . دفتر ٦٨ (عربية) رقم ١٧٩ إلى حبيب أفندى فى ١١ جماد ثانى ١٢٥١ وانظر أيضا Dunne, Printing and translations, etc. p. 342.

ترجمة الكتب المحولة إلى عهدته فقط » . وظل يمارس هذا العمل نحو ست أو سبع سنوات أخرى ، فقد توفى فى أواخر سنة ١٢٥٧ ، أو أوائل سنة ١٢٥٨ . يقول الشيخ محمد عمر التونسى فى مقدمة الجزء الأول من كتاب « الجواهر السنية فى الأعمال الكيماوية » تأليف وترجمة الدكتور « برون » الذى طبع فى سنة ١٢٥٨ : « وكان الأمر قد صدر بطبع هذا الكتاب على يد سلفى الفاضل حاوى كمالات الفضائل والفواضل ، المرحوم برحمة من يغفر ، الشيخ محمد الهراوى ، فطبع منه على يده فى ظرف سنتين ثمان وخمسون ملزمة ، ودعاه داعى الحمام فلباه ولما أتمه ، فتوليت طبعه من بعده ، واقتفيت أثره فى قصده ، ونحوت نحو إعرابه ، وإن لم أكن من أضرابه . . . » .

وبهذا يكون الشيخ الهراوى قد قضى فى مدرسة الطب نحو عشر سنوات ، كان يقوم فى خلالها بوظيفة المصحح الأول ، وكان يساعده فى بعض الأحيان مصححون آخرون هم :

٢ — الشيخ محمد محرم ، ويبدو أنه التحق بمدرسة الطب حوالى سنة ١٢٥٠ ، فقد قام بتصحيح كتاب « إسعاف المرضى من علم منافع الأعضاء » الذى ترجمه الدكتور هيبه وطبع سنة ١٢٥٢ ، وقد اشترك أيضاً مع الشيخ الهراوى فى تصحيح « نبذ كلوت بك » التى ترجمها الدكتور النبراوى ، وطبعت فى سنة ١٢٥٣ .

٣ و ٤ — الشيخان أحمد حسن الرشيدى ، والشيخ حسين غانم [١] ، من طلاب الأزهر أصلا ، ثم ألحقا مصححين بمدرسة الطب فى السنوات الأولى من إنشائها وعملا بها تحت إشراف المصحح الأول الشيخ الهراوى ، واشتركا معه فى تصحيح بعض الكتب الأولى التى ترجمت فى المدرسة ، وكانا يحضران دروس الطب مع تلاميذ المدرسة ، فأظهرا نبوغاً وتفوقاً ، ولهذا اختارهما كلوت بك ليكونا عضوين فى البعثة الطبية الأولى التى أرسلت إلى فرنسا سنة ١٨٣٢ (١٢٤٨) فلما سافرا قرر مجلس الجهادية فى ٢٦ صفة ١٢٤٨ « انتخاب اثنين مصححين بمعرفة الشيخ الهراوى رئيس مصححى مدرسه الطب البشرى ، من المشايخ : عبد الرحمن الصفتى ، ومحمد هدهد ، ومحمد عياد الطنطاوى ، وعبد المنعم الجرجاوى بدلا من كل من الشيخ السيد أحمد الرشيدى ، والشيخ السيد حسين غانم من مصلحى الترجمة بالمدرسة المذكورة نظراً لسفرهما إلى أوربا صحبة كلوت بك »[٢] .

وهؤلاء المرشحون جميعاً من خيرة شيوخ الأزهر فى ذلك العصر ، فقد عاون الشيخ محمد هدهد الطنتدائى الشيخ رفاعة فى مراجعة الجزء الأول من جغرافية « مالطبرون » .

أما الشيخ محمد عياد الطنتدائى (أو الطنطاوى) فكان من أنبغ تلاميذ العطار وممن نهجوا نهجه فى تجديد

---

(١) راجع ما كتبناه عنهما فى فصل المترجمين .

(٢) الوقائع المصرية ، العدد ٤١٢ بتاريخ ٧ ربيع الأول سنة ١٢٤٨ .

الحركة الفكرية . فبدأ بتدريس كتاب الحماسة[١] فى الأزهر ولكنه لم يلبث أن اتهم من زملائه بالكفر والإلحاد ، وانفض المستمعون عن دروسه ، فانصرف عن دروس الأدب إلى غيرها .

وقد كان الطنطاوى كأستاذه كثير الاتصال بعلماء الفرنجة الموجودين فى مصر فتتلمذ عليه كثير من المستشرقين من جنسيات مختلفة أمثال دكتور « برون » و « فرسنل » و « ج . فيل : G. Weil. » و دكتور « برنر Dr. Pruner. » و « ر . فراهن R. Frahn » ، وكان أشد هؤلاء إعجاباً به الدكتور « برون » فهو إذا ذكره — وكثيراً ما يذكره — لا يقول إلا « شيخنا محمد عياد[٢] » : "Notre Schaykh M. Ayyad." .

وقد أشاد تلميذه المستشرق الروسى « فراهن » بذكره عند عودته إلى الروسيا فقررت وزارة الخارجية الروسية دعوته لتدريس اللغة العربية فى معهد اللغات الشرقية « بسانت بطرسبرج » ، فسافر إليها فى سنة ١٨٤٠ (١٢٥٦) ومعه زوجته وابنه ، وظل يشغل منصب الأستاذية فى جامعة « بطرسبرج » حتى عاجلته المنية فى سنة ١٨٦١ ، فمات ودفن فى « لينجراد »[٣] ولا زال قبره موجوداً بها ، وقد خلف بعد موته مكتبة كبيرة بها كثير من تآليفه بخطه ، وهى محفوظة الآن فى مكتبة الجامعة بالروسيا .

أما الشيخ عبد المنعم الجرجاوى فقد اختير فيما بعد ليكون مدرساً بمدرسة الألسن .

هؤلاء هم الشيوخ المرشحون ليختار منهم الهراوى مصححين لمدرسة الطب ولكنه لم يختر واحداً منهم ، أو لعله اختار وكان الرفض من قبلهم ، فإن وثائق العصر ، والكتب الطبية المترجمة بعد سنة ١٨٣٢ لا تشير إلى اشتغال واحد منهم بالتصحيح بالمدرسة ، وليس صحيحاً ما ذكره « مستر دن[٤] » فى مقاله عن الطباعة والترجمة من أنهم اشتغلوا جميعاً — لفترة ما — مصححين بمدرسة الطب أما من وقع عليه الاختيار فإثنان غير هؤلاء ، هما الشيخ سالم عوض القنيانى ، والشيخ محمد عمر التونسى .

٥ — الشيخ سالم عوض القنيانى ، من بلدة القنايات بمديرية الشرقية ومن شيوخ الأزهر ، وتلاميذ العطار ، بدأ عمله فى الحكومة المصرية واعظاً لأحد الآلايات التى سارت إلى الشام فى سنة ١٨٣٢ (١٢٤٨)[٥]

ولسنا نعرف بالتحديد متى ألحق بمدرسة الطب ، ولكنا نعرف أنه التحق والشيخ التونسى بها فى وقت متقارب ، وأنهما كانا يتعاونان — فى أكثر الأوقات — على مراجعة وتصحيح الكتب المترجمة ، ويشركان

---

(١) Voyage au Carfour (trad. francaise par Dr. Perron), p. 451

(٢) Artin Pacha, Lettresdu Dr. Perron, pp. 11, 47, 64, 113.

(٣) راجع تفصيلات أكثر عن حياته فى Kratschovsky, Enc, Isl. Art. Tantawi و« نيبور باشا . الشيخ محمد عياد الطنطاوى مقال فى مجلة المجمع العلمى العربى . ج ٩ . ايلول ١٩٢٤ . ونفس المرجع . « كراتشكوفسكى » . ج ١٢ . كانون الأول ١٩٢٤ وعبد الدين الخطيب . الشيخ الطنطاوى ، مجلة الزهراء . ج ٧ . رجب ١٣٤٣ . ثم انظر مقالتاعن « دكتور برون والشيخان التونسى والطنطاوى » فى مجلة كلية الآداب بجامعة فاروق الأول العدد الثانى ١٩٤٤ .

(٤) Dunne. Op, Cit p. 345

(٥) ذكر هذا ولده الدكتور سالم باشا سالم فى ترجمته لنفسه فى الخطط التوفيقية ج ١٤ . ص ١٢٥ .

معهما فى هذا العمل ، الدكتور برون ، فقد قام الشيخ التونسى بتصحيح كتاب « روضة النجاح الكبرى فى العمليات الجراحية الصغرى » الذى ترجمه الدكتور محمد على البقلى ، وطبع سنة ١٢٥٩ ، فلما طبع منه ما ينوف على ثلاثين ملزمة كما يقول الشيخ القنايانى « سلمه إلىّ لكونه مشغولا بغيره من الكتب المحتمة الطبع ، وللمدرسة لازمة ، فشمرت الذيل فى تصحيحه وترتيبه ، واستنهضت الرجل والخيل فى تنقيحه وتهذيبه ، واجتنبت فيه الإسهاب والإطناب ، والتزمت فيه جزالة العبارة ليسر أولى الألباب » .

ويقول الشيخ القنايانى بعد ذلك فى نفس : المقدمة « ولطالما كنا (أى هو والتونسى) نقابله على أصله بحضرة وملاحظة من بلغ ذروة تلك العلوم ، وعلى أقصى درجه فى منطوقها والمفهوم ، الماهر اللبيب ، اللوذعى الأديب الحكيم الكياوى حائز فرائض تلك الفنون ، ناظر مدرسة الطب البشرى الشهير بيرون ، ولكونه يحسن اللغتين الفرنساوية والعربية ، وله بهذا الفن خبرة وحسن روية صار يقتنص إلى هذا الكتاب كل عويصة شاردة ، ويرد إليه كل فريدة دقيقة الفهم نادرة آبدة » .

كذلك اشترك الشيخان فى تصحيح كتاب « التنقيح الوحيد فى التشريح الخاص الجديد » الذى ترجمه الدكتور محمد الشباسى ، وتم طبعه فى بولاق سنة ١٢٦٦ وهو كتاب ضخم فى ثلاثة أجزاء كبار ، يقول الشيخ التونسى فى مقدمته « ولما تم ترجمة وإتقاناً ، وتهذيبا وإحسانا ، وكل أمر تصحيحه إلى حضرة المصحح الأول ، من كان عليه فى مساعدتى المعول ، الأخ الموافق ، الشيخ سالم عوض القنايانى ، فصحح منه الجزء الأول ، وعاقه الرمد عن الثانى ، فشرعت فى تصحيح ما بقى منه بدون توانى » .

ويبدو أن مقام الشيخين كان واحدا ، فقد كان لهما الصدارة بين بقية المصححين ، ولكن وثائق العصر تلقب الشيخ سالماً « بالمصحح الأول » بينما تلقب التونسى « بالمصحح » .

٦ - الشيخ محمد عمر التونسى ، هو نابغة المصححين والمحررين ، وزعيمهم جميعا فى ذلك العصر ، وقد أهلته لهذا المنصب ثقافة واسعة جناها من الكتب أولا ، ومن رحلاته العديدة ثانيا .

وحياة هذا الرجل عجيبة من عجائب ذلك العصر ، فهو تونسى أصلا ومولدا ، وإن كانت أمه مصرية وقد عشقت أسرته الرحلة ، فعاش هو وأبوه وجده فى مصر وبلاد العرب والسودان أكثر مما عاشوا فى وطنهم الأصلى تونس .

ولد الشيخ محمد عمر فى (٢٧ يوليو ١٧٨٩ — منتصف ذى القعدة ١٢٠٤) ثم نشأ نشأته الأولى فى مصر وكان أبوه قد رحل إلى السودان باحثا عن أبيه ، فأعجبته الحياة هناك فاستقر بتلك البلاد ، ونال الحظوة الكبرى عند سلطان دارفور عبدالرحمن بن أحمد (توفى ١٢١٤ — ١٧٩٩) ولما ضاقت سبل الرزق فى وجه محمد رحل هو أيضاً إلى دارفور باحثا عن أبيه ، وقد أقام هناك مدة طاف فى خلالها بأرجاء دارفور

وواداى ، ثم عاد إلى مصر فى الوقت الذى كانت تتأهب فيه حملة المورة بالمسير فعين واعظا للآلاى الثامن من آلايات تلك الحملة .

وفى سنة ١٨٣٢ (وهى السنة التى سافر فيها الرشيديان إلى باريس) عاد إلى مصر مع الحملة فاختير مصححا بمدرسة الطب ، وهناك تعرف على الدكتور «برون» وأعجب كل منهما بالآخر ، وتتلمذ برون على التونسى ، وقرأ عليه كتاب كليلة ودمنة وكتبا أخرى . وتعاونا معاً على مراجعة الكتب الطبية العربية لاختيار المصطلحات التى تيسر لهم ترجمة الكتب الفرنسية ، وفى جلساتهما الخاصة تحدث التونسى إلى صاحبه عن مشاهداته فى بلاد السودان . فأوعز إليه أن يسجلها فى كتاب خاص ، يقول التونسى «فذكرت له بعض ما عاينته فى أسفارى من العجائب فحملنى على أن أزين وجه الدفتر بإيضاح ما شاهدته ، فامتثلت أمره لما له علىّ من اليد البيضاء»[1] . وأذعن الشيخ فعلا لمشورة صديقه ، فزين وجه الدفتر بكتابين قيمين سجل فيهما مشاهداته فى دارفور وواداى ، وسمى الكتاب الأول « تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » وضمنه رحلتـــه إلى دارفور ، وسمى الكتاب الثانى « الرحلة إلى واداى » ، وقد قام الدكتور « برون » بنشر النص العربى للرحلة الأولى فى باريس سنة ١٨٥٠ ، ثم ترجمها إلى الفرنسية ونشر الترجمة فى باريس سنة ١٨٥٥ تحت عنوان « Voyage au Darfour » . أما النص العربى لرحلة واداى فلم ينشر ، وإنما نشرت ترجمته الفرنسية التى قام بها «برون» فى باريس سنة ١٨٥١ تحت عنوان : « Voyage au Ouaday » ، والكتابان من أحسن المراجع التى وصفت السودان فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

وقد قام التونسى فى مدرسة الطب بتصحيح الكتب الآتية :

١ — الدر اللامع فى النبات وما فيه من الخواص والمنافع . تأليف الدكتور « فيجرى بك » وترجمه السيد حسين غانم الرشيدى . وطبع فى بولاق سنة ١٢٥٧ .

٢ — واشترك مع الشيخ القنياتى فى تصحيح كتاب « روضة النجاح الكبرى فى العمليات الجراحية الصغرى » الذى ترجمه محمد على البقلى ، وطبع فى سنة ١٢٥٩ .

٣ — واشترك مع الدكتور «برون» فى مراجعة وتصحيح كتاب «كنوز الصحة ويواقيت المنحة» الذى ترجمه الدكتور محمد الشافعى ، وطبع فى سنه ١٢٦٠ .

٤ — وقام على تصحيح كتاب «الدرر الغوال فى معالجة أمراض الأطفال» تأليف كاوت بك وترجمة الدكتور محمد الشافعى . وطبع فى سنة ١٢٥٠ .

---

(١) التونسى تشحيذ الأذهان . ص ٥ — ٦ . وقد استقينا معلوماتنا عنه من ترجمته لنفسه فى مقدمة رحلة دارفور . وقد نقلها عنه على مبارك فى الخطط التوفيقية ج ١٧ . ص ٣٤ — ٣٧ . Enc. Ist . Art. Tunisy. انظر أيضا ما قالنا السابق الذكر عن « الدكتور برون والشيخان الطنطاوى والتونسى » .

٥ — واشترك مع الدكتور برون ، فى ترجمة وتصحيح كتاب الأخير « الجواهر السنية فى الأعمال الكيماوية » الذى طبع فى سنة ١٢٥٨ — ١٢٦٠ .

٦ — واشترك مع الشيخ القنيانى فى تصحيح كتاب « التنقيح الوحيد فى التشريح الخاص الجديد » تأليف « كروليه » وترجمة الدكتور محمد الشباسى . وتم طبعه فى سنة ١٢٦٦ .

وللتونسى فوق هذا جهود مشكورة فى السعى لطبع قاموس المحيط . وترجمة قاموس « Fabre » الطبى مما سنتفضل الحديث عنه فى الفصل الخاص بالقواميس .

وقد شارك التونسى أيضا فى حركة نشر الكتب العربيـــة . فأشرف على نشر مقامات الحريرى . والمستطرف فى كل فن مستظرف للابشيهى .

وفى السنوات الأخيرة من حياته كان يدرس الحديث بمسجد السيدة زينب فى يوم الجمعة من كل أسبوع إلى أن توفى فى القاهرة فى سنة ١٢٧٤ (١٨٥٧)

٧ و ٨ — الشيخان رفاعة الطهطاوى وابراهيم الدسوقى . عملا فترة كمصححين بمدرسة الطب . ثم نقل رفاعة إلى مدرسة المدفعية ونقل الدسوقى إلى مدرسة الهندسة

(ب) فى مدرسة الطب البيطرى

١ — الشيخ مصطفى حسن كساب . ألحق مصححا بمدرسة الطب البيطرى منذ انشائها فى رشيد . وقد قام بتصحيح جميع كتب الطب البيطرى التى ترجمها يوسف فرعون . ثم محمد عبد الفتاح . وعطيه افندى من بعده . فكان أول كتاب قام على تصحيحه كتاب « التوضيح لألفاظ التشريح » تأليف « جيـرار » وترجمة يوسف فرعون . وطبع فى بولاق سنة ١٢٤٩ (١٨٣٤) وآخر كتاب راجعه هو كتاب « مجمع الغرر فى سياسة البقر » تأليف « روبينيه » وترجمة عطية افندى أحد خريجى الألسن ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٦٤

٢ — الشيخ عبد المنعم : وقد ذكر الدكتور عزت عبد الكريم أنه كان بالمدرسة مصحح آخر يدعى الشيخ عبد المنعم [1] . وقد نقل فيما بعد « باشخوجه » بمدرسة المبتديان . غير أننى لم أعثر بين كتب الطب البيطرى المترجمة على كتاب واحد صححه هذا الشيخ .

(ج) فى مدرسة الزراعة :

الشيخ نصر أبو الوفا الهورينى ، كان المصحح الوحيـــد بمدرسة الزراعة . ولم أعثر إلا على كتاب واحد قام على تصحيحه الهورينى وهو كتاب « أجل الأسباب فى أحل الاكتساب » وقد أثبت فى نهايته أنه انتهى من كتابته سنة ١٢٥٩ . وفى نهاية تلك السنة نقل الشيخ مصححا بقلم الترجمة الملحق

(١) تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، ص ٣٢٤ .

بمدرسة الألسن . وفى سنة ١٢٦٠ (١٨٤٤) اختاره محمد على باشا بنفسه ليكون أماما لبعثة الإنجال التى أرسلت فى تلك السنة إلى فرنسا . ولما عاد إلى مصر اشتغل بالتدريس فى الأزهر . ثم نقل مصححا بمطبعة بولاق . وهناك أشرف على طبع كثير من كتب اللغة . وله عليها حواش وتعليقات قيمة . وخاصة القاموس للفيروزبادى . والصحاح للجوهرى . والمزهر للسيوطى . وغيرها كثير ، وله مؤلفات [١] كثيرة طبع منها كتاب « المطالع النصرية للمطابع المصرية » ويقول الأمير عمر طوسون فى كتابه عن البعثات « ومع أنه لم يرسل إلى فرنسا للتعلم إلا أنه تعلم اللغة الفرنسية هناك . وكان يتكلم بها ويقرأها جيداً . كما أخبرنا بذلك حفيده عباس افندى نصر » [٢] وقد ظل الشيخ على نشاطه إلى أن توفى فى سنة ١٨٧٤ .

(د) فى مدرسة الهندسة :

الشيخ ابراهيم عبد الغفار الدسوقى : كان المصحح الوحيد بمدرسة المهندسخانة . ولد فى دسوق سنة ١٢٢٦ . ثم أتم علومه فى الأزهر ، وفى سنة ١٢٤٨ عين مصححا بمدرسة الطب . ولكنه لم يلبث بها إلا قليلا ثم نقل إلى مدرسة المهندسخانة . وقد قام بتصحيح جميع الكتب الرياضية التى ترجمت بها فى عهدى محمد على وعباس . فلما ألغيت المدرسة فى عهد سعيد باشا نقل مصححا بمطبعة بولاق وقد شارك فى أوقات مختلفة فى تحرير « الوقائع المصرية » ومجلة « البعسوب » الطبية

وفى عهد اسماعيل رقى إلى رئيس مصححى مطبعة بولاق ، وقد اتصل الدسوقى اتصالا وثيقا بالمستشرق الانجليزى « المستر لين [٣] » واشتركا معا فى قراءة « القاموس » وتفهمه . فإذا افترقا ترجم « لين » ما قرأه إلى اللغة الانجليزية . وظل على ذلك سنوات حتى أتم تسعة أعشاره . ثم سافر إلى لندن حيث أعد العشر الأخير وطبع القاموس لأول مرة فى لندن سنة ١٨٦٣ تحت عنوان "Lane's "Arabic English Lexicon وقد عاش الدسوقى نحو أربع وسبعين سنة ، وتوفى فى سنة ١٣٠٠

(هـ) فى مدرسة الألسن :

كان رفاعة يشرف بنفسه على مراجعة وتصحيح الكتب التى ترجم فى المدرسة أول إنشائها . فلما كثر انتاجهم ، اشرك رفاعة معه فى هذا العمل بعض مدرسى الألسن . وخاصة المشايخ محمد قطة العدوى ، واحمد عبد الرحيم الطهطاوى . ومحمد الفرغلى ، وقد أشرنا إلى الكتب التى صححها كل منهم فى قائمة الكتب المترجمة الملحقة بهذه الرسالة .

---

(١) ذكر الزركلى فى كتابه الأعلام ج ٣ ص ٣٠٠ . أن له مؤلفات كثيرة لا زالت مخطوطة منها « تسلية الصاب على فراق الأحباب » و « التوصل الى مثا كل التوسل » و « المؤتلف والمختلف » و « سرح العينين فى شرح نعتين » و « حاشية على بسملة الاحراز فى أنواع الجناز » الخ .

(٢) عمر طوسون البعثات العلمية ص ١٧٤ . هامش ١ .

(٣) روى الدسوقى قصة اتصاله بلين فى أسلوب طريف ونقلها عنه مبارك . الخطط ج ١١ ص ١٠ — ١٣ . ثم فصل العلاقة بين الرجلين الأستاذ أحمد أمين فى الثقافة العدد ١٢٦ و ١٢٧ .

هؤلاء هم المصححون والمحررون ، وهذه لمحة عن جهودهم تبين فى وضوح أنهم أفادوا حركة الترجمة والنهضة العلمية الحديثة فوائد جمة ، فخرجت الكتب المترجمة سليمة من اللكنة والعجمى ، خالية بقدر الامكان من الأخطاء ، وقد حاول الكثيرون منهم قدر استطاعتهم التوفيق بين الصطلحات العلمية الحديثة والمصطلحات العلمية القديمة ، وجمعوا لكتبهم مجموعة كبيرة منها تصلح لأن يتخذها المجمع اللغوى أساساً طيباً لجهوده فى هذا الميدان .

وفى نفس الوقت أفاد بعض هؤلاء المحررين — وخاصة الشيخ التونسى — الكثير من أشتغاله بهذه الحركة ففهموا بعض ما جاء فى الكتب العلمية المترجمة وكسبوا لأنفسهم معارف جديدة واسعة ، وأضافوا إلى ثروتهم اللغوية ثروة جديدة لكثرة ما قلبوا الكتب باحثين ومنقبين ولكثرة ما نحتوا واشتقوا واقتبسوا من ألفاظ ومصطلحات جديدة . ولهذا كانوا يحاولون دائماً — فيما يكتبون من مقدمات — أن يعلنوا عن هذه المعرفة الجديدة التى كسبوا ، وفيما يلى مثال لهذا الاعلان نختاره مما كتبه التونسى — زعيم هذا الميدان — فى مقدمته لكتاب « الجواهر المسنية فى الأعمال الكيمياوية » للدكتور «برون» ، وقد شحن التونسى هذه المقدمة بمعظم المصطلحات الكيميائية التى وردت فى متن الكتاب ، قال : « .. يامن تتصاعد إليه الأرواح وتتسامى ، وتذوب الأجسام من هيبة جلاله وعلى باب عفوه تتراءى ، تنزهت ذاتك العلية عن التركيب والتحليل ، وتقدست صفاتك السنية عن التغيير والتبديل ، لا إله إلا أنت خلقت لنا ما فى الأرض من المعادن والنباتات والحيوانات ، وأوجدت لنا الحلو والحامض ، والعذب والملح من المطعومات ، وألهمتنا معرفة العناصر والبسائط والمركبات ، فسبحانك من إله تفطرت دموع الخائفين من سطوة عذابه ، والتهبت أحشاء المذنبين من أليم عقابه ، ووجلت قلوب المحبين من خشية عتابه ، فيا من حمده أعظم كيمياء لاكسير الثواب ، وشكره أجود موصل إلى دار المآب ، نحمدك على نعمك التى علينا عمت وجلت ، حمداً نخلص به مهجتا وأجسامنا من حرارة النار التى أوقد عليها ألف عام حتى احمرت ، وألف عام حتى ابيضت ، ونشكرك شكر من ألنت له الحديد لعمل السابغات ، وأرسلت لولده عين القطر ، وسخرت له الجن يعملون ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب (؟) وقدور راسيات ، ونشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك شهادة تنقذنا بها من كل عمل مشكور ، كما انقذت من أنزلت عليه (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور) ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبدك ورسولك الذى مثلت قلبه الشريف بزجاجة فيها مصباح ، وجذبت بمغناطيس أنواره الأرواح ، فانقادت له الأشباح ، وهديتنا به من المعوج إلى السمحا البيضا ، وأفضت عليه من العلوم اللدنية فيضاً ، وجعلت ذاته الشريفة قابلة لزيادة الكمال بلا ارتياب ، وأنزلت عليه (يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولوا الألباب) ، اللهم فصل عليه وعلى آله مصابيح الدين ، وأصحابه الذين كانوا كشواظ من نار ونحاس

على الكافرين ، ما رشحت أنابيق الغمام فنزلت دموعها قطرات ، وسال تيار المياه على البوهلد فأصبحت الأرض مخضرة بأصناف النبات ، ولمعت قطع البرد على البسيطة كالبلورات المنشورية والمربعات ، وتولدت الحوامض والأكاسيد والأملاح من المعادن والنباتات والحيوانات وسلم تسليما كثيراً ، وبعد فيقول مرتجي العفو من المنان ، محمد التونسي بن عمر بن سليمان لما كانت الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أينما وجدها ، وأبرك يوم عنده ما أحرز فيه مسألة واستفادها وأفادها ، وكان من أجلها علم الكيمياء الذي لم يسمح بمثله الزمان ، إذ هو أساس لعلم الشفاء ومعالجة الأبدان ، فهو له كالأم وعلم الطبيعة كأبيه ، ولا ينكر ذلك إلا كل جاهل سفيه ، إذ لا وبه يعرف تحليل الأجسام وتركيبها ، وتقطير الأملاح وتبلورها وتذويبها وتأكسد المعادن واستحضار الغازات ، وتجهيز الحوامض والأملاح ومنافع الفلزات ، وتتميز السموم عن غيرها من الاستحضارات ، ولا تتم مهارة الطبيب إلا به ، ويدرك خطأ من صوابه كان الواجب على العاقل أن يتلقاه ولو من غير أهل الاسلام . . . الخ . . الخ) .